عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2001)
السنة الثامنة
الخميس (30)
كانون الاول 2010

مشروع نوري جعفر الوطني

د. جمال حسن العتابي

تحتل تنمية الثروة العقلية واستثمارها محل الصدارة في جهد العلامة (نوري جعفر)، واصبح هذا الهاجس محور اهتمامه الفكري والعلمي طيلة انشغاله في البحث العلمي الرصين، وانصرف كلياً للكشف عن المواهب والكفاءات وتنميتها وتوجيهها ورعايتها علمياً وتربوياً ومهنياً ،

ذلك لانه يعد العنصر البشري جزءاً لايتجزأ من الثروة الوطنية ، ولأجل ضمان تحقيق هذا الاستثمار على خير وجه وفق منهجية علمية مبرمجة، قدم نوري جعفر المئات من البحوث والدراسات الى المؤسسات العلمية والهيئات التربوية، داخل العراق وخارجه ، لكي تتحول تلك الأفكار الى واقع ملموس يرنو ببصره اليه، ليتحول الى حقيقة ماثلة، امام عينيه، ولأنه كان يعي تماماً الصعوبات الجمة التي كانت تعترض سبل الكشف عن مصادر الابداع واعاقتها، بسبب العقلية المتخلفة السائدة التي تدير او تشرف على ميدان العلم ومؤسساته وكثيراً ما تعرض بسبب منهجه هذا الى المضايقات والملاحقة، او التهميش من قبل السلطات الحاكمة، ودفع بسبب ذلك ثمناً باهظاً فاختار الغربة، ايضاً، وعاش بعيداً عن وطنه، بألم وحسرة وهو يشهد ما أحاط بالوطن من ظلمة وخواء .

يقول الراحل نوري جعفر: كان املي كبيراً بأن يصبح مشروعنا في المستقبل غير البعيد مثالاً نموذجياً رائعاً يحتذى به في ارجاء البلاد العربية والدول النامية ، وان يتحول ايضاً بصورة تدريجية الى اكاديمية علمية، ينصرف اعضاء الهيئة التدريسية فيها وطلابها الى اجراء ابحاث علمية اصيلة رائدة نظرية وتطبيقية تقنية، ويعني بذلك مشروعه الوطني في اساليب الكشف عن المواهب العلمية وطبيعتها، وكان يحلم بأن يعرض العراق في هذا المشروع منجزاته العلمية النظرية والتكنولوجية في المحافل العلمية الدولية . تتلخص فكرة هذا المشروع بدراسة المواهب وتحديد ماهيتها، والتي يعرفها، انها قدرات عقلية نادرة او فريدة يتصف بها بعض الناس وتعبر عن نفسها عند النضج بأحد الشكلين الاساسيين وهما:

الكشف عن رابطة خفية موجودة بين شيئين ماديين مألوفين لم يكشف عنها احد من قبل . والمواهب برأيه ارتباط عضوي بالخيال الذي هو في جوهره الجانب غير الواقعي في حياة الفرد العقلية ، وان كانت عناصره مستمدة في الأصل من البيئة الطبيعية والاجتماعية التي يعيش فيها الأنسان، معنى هذا ان الخيال يعبر عن نفسه في التأليف او الجمع غير المألوف بين أشياء محسوسة متباعدة عن بعضها في الزمان والمكان لغرض اظهارها باشكال جديدة غير مألوفة ايضاً، وللخيال درجات متباعدة صاعدة ، وكلما كان الخيال أكثر بعداً عن الواقع في الرياضيات او الشعر مثلاً ، كان ارقى .

ومثلما يشير (فاخر عاقل . الابداع وتربيته) وهو يبحث في طبيعة العمل الابداعي وشروطه، الذي يعرفه بـ (الدهشة الفعالة) فانه يضع التخيل او الحدس ، كأحد المعايير المهمة في خلق هذه الدهشة او مقترناً بها .. فالتخيل بنظره تصور امور غير موجودة امام العين مماحدث في الماضي، او سوف يحدث في المستقبل. ومعنى ذلك القدرة على تكوين صور او مفاهيم عقلية لأمور او أشياء لم يختبرها الانسان . أي اننا نستحضر في اذهاننا لا الاشياء الممكنة فحسب بل والاشياء او الحوادث البعيدة عن الواقع الحالي، التي هي ببساطة امور خلقها خيالنا .

ويضيف عاقل: الحق ان مصطلح (التخيل) يعني دوماً تجاوز الحقائق المعطاة ، اضف الى ذلك كله اننا نصف الابداع الفني بالتخيل، ونعني بذلك الابتكار والخلق . ان التحليل الدقيق يرينا، ان التفكير المتخيل هو في الواقع جزء مهم من التفكير ضمن انظمة مغلقة.

أخذ البحث في وظائف الدماغ الحيز الاكبر في انشغالات نوري جعفر العلمية، في ضوء علوم الدماغ الحديثة.

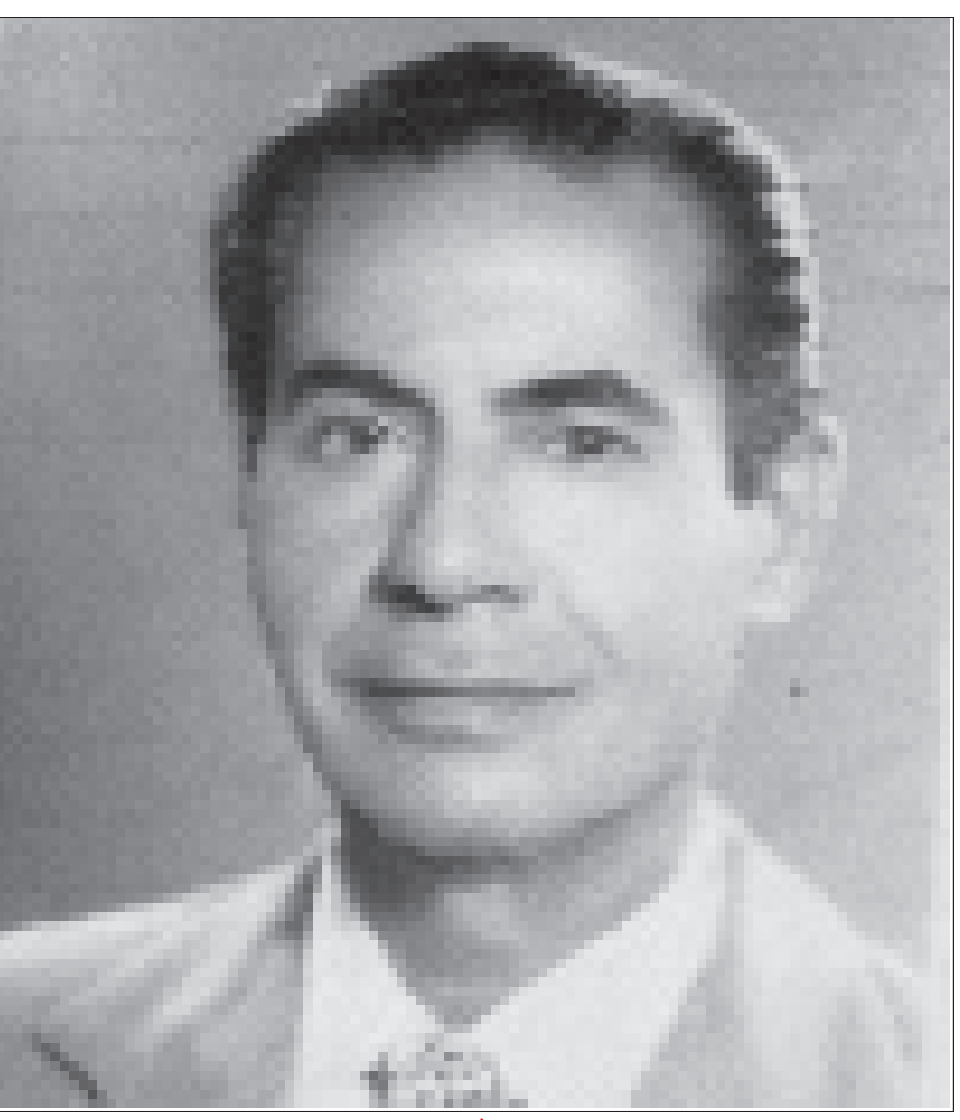
وكانت جل طروحاته تنفي وجود قدرات رياضية وغير رياضية نظرية كامنة في طبيعة الفرد، او مسجلة على صفحة المخ ، فمحتوى القدرات العقلية جميعاً ينشأ بالاكتساب البيئي وان الخصائص المخية لاصحاب المواهب لاتؤدي من نفسها، الى انتاج اي شيء الا اذا وجدت الظروف البيئية الملائمة واستثمرها صاحبها الى حدها الاقصى في الموضوع الذي يجنح نحوه منذ سن مبكرة مع العلم ان تلك الخصائص موجودة بشكلها العام لدى جميع الافراد الاسوياء بدرجات متفاوتة. ان القدرات العقلية برأيه ليست قوة فطرية مسجاة بتحجر على صفحة المخ ، بل هي تنشأ وتتطور في مجرى الحياة اليومية، وان الفروق الفردية في هذه القدرات لاتدل على شيء أخر، سوى ان الاشخاص قادرون على القيام بجميع اوجه النشاط العقلي بدرجات متفاوتة وان كل شخص سوي أقدر من غيره (ومن نفسه ايضاً) في مجال معين منه في المجالات الأخرى فبعض الطلاب يتخطى اقرانه في بعض الموضوعات ويتخلف عنهم في موضاعات اخرى، وبامكانه ان يتخطى نفسه في موضوع او أكثر من موضوعات الدراسة ، وان يكون مبدعاً فيه، وهذا يستلزم اتاحة فرص تعليمية واجتماعية ملائمة لجميع الطلاب ليستثمر كل منهم رصيده المخي الى حده الأقصى في الموضوع الذي يميل اليه.

وفي ضوء ما تقدم يؤكد نوري جعفر ضرورة تجهيز الطالب منذ اليوم الأول في تعليمه مادة الرياضيات . كونها الميدان الأكثر واقعية في الكشف عن المواهب . بمواد حسية بصرية كثيرة ومتنوعة، وجعله يتعامل معها تمهيداً لحصول الصور الذهنية والحسية والبصرية والتعامل معها بدل الأشياء المادية.

ويستلزم كذلك تدريب الطلاب على فهم معاني المصطلحات الرياضية الملائمة وتجهيزهم بثروة لغوية رياضية مناسبة وتبسيط صوغ المسائل الحسابية والعناية بدقة التعابير المستخدمة والابتعاد عن استعمال الالفاظ والعبارات الغامضة تفادياً لحصول الالتباس في اذهانهم . وهو بذلك ينبه الى عقم أساليب التعليم في مراحل الدراسة الابتدائية ، وبخاصة في الصفوف الثلاثة الأولى، لذا كثيراً ما كان يدعو الى ان يغير المعلم موقفه السلبي من الطالب الى موقف ايجابي يتسم بالحنان والتوجيه وبعث الثقة بالنفس لنتمكن من التغلب على صعوبات التعلم والدراسة.

ويطرح نوري جعفر اساليبه المتنوعة في رعاية الموهوبين ، منطلقاً بذلك من تجارب عالمية في هذا المجال ، وجد في تطبيقها ، او الافادة منها ، معيناً مهماً في ابتكار اساليب جديدة تتناسب والواقع المحلي ، وتكاد تجمع تلك الاساليب على رعاية الموهوبين من خلال اثراء مفردات منهج الدراسة المعتاد ، باضافة موضوعات جديدة ، او التوسع في موضوعاته او باعتماد اسلوب التعجيل (التسريع) وذلك بالسماح للطالب بالانتقال الى صف اعلى من صفه في اثناء العام الدراسي الواحد. فضلاً عن الرعاية الخاصة بالنشاطات اللاصفية خارج اوقات الدوام المحدد، في ضوء برامج معدة علمياً لهذا الغرض.

ويستلزم تنفيذ هذه الاساليب القيام بمسح شامل للقدرات المتميزة في كل مدارس العراق، وتسجيل الحالات الأكثر وضوحاً في تلك القدرات منها: الرغبة الواضحة في موضوع الرياضيات والفيزياء والميل الملحوظ نحو تعلم واتقان المهارات الاساسية، كذلك القدرة على تعميم المادة الرياضية المتعلمة، والمرونة في اجراء العمليات الرياضية وادراك جوهرها والقدرة على ابتداع اساليب جديدة لحل المسائل الرياضية، والالمام بالعلاقات الرياضية العامة وبأساليب التفكير الرياضي، كذلك القدرة على اختزال خطوات العمل الذهني والميل نحو ادراك العالم الخارجي ادراكاً رياضياً، او تحليل الظواهر البيئية وعلاقاتها تحليلاً رياضياً، والقدرة على ممارسة التفكير بشكل مقلوب، او معكوس اي السير من المجهول والرجوع به الى المعلوم، فضلاً عن الجرأة او الاقدام على اقتحام المجهول. مع ضرورة توفر استقلالية التفكير الرياضي والاتصاف بالمبادرات الشخصية والابتعاد عن التقليد او المحاكاة او التطبيق الميكانيكي على





يقول الراحل نوري جعفر كان املي كبيراً بأن يصبح مشروعنا في المستقبل غير البعيد مثالاً نموذجياً رائعاً يحتذى به في ارجاء البلاد العربية والدول النامية ، وان يتحول ايضاً بصورة تدريجية الى اكاديمية علمية ، ينصرف اعضاء الهيئة التدريسية فيها وطلابها الى اجراء ابحاث علمية اصيلة رائدة نظرية وتطبيقية تقنية ، ويعني بذلك مشروعه الوطني في اساليب الكشف عن المواهب العلمية وطبيعتها ، وكان يحلم بأن يعرض العراق في هذا المشروع منجزاته العلمية النظرية والتكنولوجية في المحافل العلمية الدولية . تتلخص فكرة هذا المشروع بدراسة المواهب وتحديد ماهيتها ،

الحالات الجديدة.

إن احد الاسباب التي دعت نوري جعفر التركيز على حقلي (الرياضيات والفيزياء) في كشوفاته العلمية، هو ايمانه المطلق بان تقدم الشعوب، وتمكنها من بناء حضارتها لم يأتِ عن فراغ، او مجهول، بل اعتمدت كلياً في برامجها وخططها العلمية على ذينيك العلمين، ووضعتهما في ميدان التطبيق الفعلي والعملي.

وهكذا ظلت الدول المتقدمة تتسابق من أجل تحقيق افضل الانجازات بفضل هذين العلمين ، ولابد من الاشارة الى الرأي الذي كان يرجح سر تفوق (الاتحاد السوفيتي) آنذاك، على الولايات المتحدة في مجال غزو الفضاء، ايام الحرب الباردة ، هو تفوق علمائه الرياضيين والفيزيائيين على زملائهم في الدول الأخرى، وربما يمكن القول بتأثر نوري جعفر بالمدرسة (السوفيتية) . اذا صح التعبير .

بعد ان سنحت له الفرصة بعد تموز ١٩٥٨ للاطلاع مباشرة على تلك التجربة ، وهو لايخفي هذه الحقيقة حين قدم لكتابه (طبيعة الانسان في ضوء فسلجة بافلوف) الصادر عام ١٩٧٨ إذ يقول: أتاحت لي ثورة ١٤ تموز فرصة الاطلاع المباشر عن طريق اللغة الانكليزية على منجزات الفكر السوفيتي في علم النفس وفسلجة الجهاز العصبي المركزي، فكانت حصيلة ذلك هذا الجهد الفكري المتواضع. ويكاد يلمس المتتبع لسيرة حياة هذا العالم ملامح جديدة في مواقفه السياسية والاجتماعية فيها انحياز واضح لقضايا شعبه ويتجلى هذا الانحياز في تعاطفه الكامل مع بافلوف حينما يستعرض حياته اذ يقول عنه: ومع ان بافلوف كان رجل علم مختبري تجريبي، إلا أنه مع ذلك لم يعزل نفسه او علمه عن الحياة الاجتماعية التي كانت تجري من حوله فارتبط بالجماهير بكل جوارحه وعواطفه النبيلة واعد العمل الشريف الذي يدر على صاحبه الرزق الحلال اثمن شيء في الدنيا، ومقت البطالة والاتكال وشجب العيش الطفيلي على حساب جهود الآخرين.

وكانت ميوله السياسية العامة، تجري ضمن أطار فلسفة الثوريين الديمقراطيين الروس. فكانت ديمقراطية تقدمية.

ان سيرة حياة نوري جعفر، ومنجزه الفكري والعلمي، تمثل حالة فريدة من العطاء والأصالة، ومنهلاً ثراً للباحثين والدارسين وللثقافة العراقية على وجه الخصوص. فنوري جعفر انسان ومبدع وإرث علمي بحاجة الى اليد التي تعيد له مكانته المتميزة، وترد له اعتباره فحسناً لو فعلت وزارات التعليم العالي والتربية والثقافة بإعادة طبع مؤلفاته ووضعت افكاره في مناهج التعليم موضع التطبيق ، او على الاقل لو اطلق اسمه على احدى الجامعات او القاعات التدريسية او خصص يوم للاحتفاء به او تكريمه وتلك اجراءات لانعتقد انها عسيرة التحقيق لو توفرت النوايا الطيبة لدى (أولي الأمر) في رعاية العلماء، فالبلد الذي لايستذكر رموزه وعلماءه كـ (نوري جعفر ومصطفى جواد وجواد علي وعبد الجبار عبد الله ومهدي المخزومي وعلي جواد الطاهر) والقائمة تطول .. إنه والله لبلد عاق.

الدكتور نوري جعفر فكرا وممارسة

ع صبري هادي

اثناء دراسته في اميركا مع استاذه الفيلسوف جون ديوي ١٩٤٩

هناك خط فاصل وتغيير جذري في تفكير العالم الراحل الدكتور نوري جعفر قبل وبعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، فمن يطلع على مؤلفات الدكتور نوري جعفر قبل ١٤ تموز سيعرف بأن الدكتور لم يكن خاضعا لمنهج معين ، كما لم يتبن اتجاها فكريا واضحا. لقد بدأ مشروعه الثقافي بترجمة كتاب براتراندرسل (السلطة والفرد) عام ١٩٥١. ولم يكن الفيلسوف الانكليزي الشهير (رسل) معروفا في الاوساط الثقافية آنذاك عند ترجمة كتابه المذكور.. أتبعه بكتابه (التربية وفلسفتها) ١٩٥٢ وفيه نقد لاذع للماركسية ثم اصدر كتابه (جون ديوي) عام ١٩٥٤ ثم صدر كتاب (التاريخ مجاله وفلسفته) عام ١٩٥٥ تبعه في الصدور كتاب (العلوم الطبيعية) عام ١٩٥٥ كما الف كل هذه الكتب قبل ١٤ تموز (علي ومناوئوه) و(الصراع بين الامويين والاسلام) و(فلسفة الحكم عند الامام). هذه الكتب اهم ما صدر للدكتور نوري جعفر قبل ١٤ تموز. ومن اللافت للنظر ان المؤلف لم يذكر الكتب الثلاثة الاخيرة ولا كتاب التربية وفلسفتها في ثبت مؤلفاته التي اعتاد رسمها على اغلفة مؤلفاته التي نشرها بعد ثورة ١٤ تموز. وبكل جلاء فان هذه المؤلفات لم تكن متناغمة مع الماركسية التي اقتنع بها بعد ١٤ تموز بل كانت مقارباته في تلك المؤلفات تتناقض وتتقاطع مع الماركسية.

وللحقيقة فان الدكتور نوري جعفر خاض الانتخابات البرلمانية التي اجراها رئيس الوزراء ارشد العمري عام ١٩٥٤ تحت مظلة حزب الامة الاشتراكي الذي كان يترأسه صالح جبر.. وقد ائتلف الدكتور نوري مع عامر حسك في المنطقة الانتخابية التي تشمل قضاء القرنة وناحية المدينة. وكان عامر حسك واحدا من العسكريين الذين سجنوا ثم فصل من الخدمة العسكرية لأنه وقف الى جانب العسكريين الذين التفوا حول رشيد عالي الكيلاني رئيس الوزراء المعروف الذي قاد حركة مايس ١٩١٤. وكان عامر حسك شخصية مثقفة ومعروفا باتجاهه القومي وخلف بعض الكتيبات منها كراسه الموسوم بـ (اهواء جنوب العراق). وعلى كل حال فقد خاض كل من الرجلين تلك الانتخابات كما اشرنا سابقا ضمن مرشحي حزب الامة المعروف باتجاهه اليميني وحظيا بتأييد قوي جدا في منطقتهم الانتخابية اضطر السلطات المحلية، بايعاز من الجهات العليا في الدولة الى تزوير الانتخابات عنوة وبقوة ازيز الرصاص لصالح مرشحي حزب الاتحاد الدستوري الذي يتزعمه آنذاك نوري السعيد، لأن ذينكما الحزبين اليمنيين كانا مختلفين في تلك الفترة وأودع كل من الدكتور نوري وزميله عامر حسك الامارة السجن مع العشرات من اتباعهما وخسرا تلك الانتخابات. بعد ذلك حصلت مقابلة بين الدكتور نوري جعفر وارشد العمري رئيس الوزراء وكانت المقابلة متشنجة ومتوترة فصل بعدها نوري جعفر كاستاذ في دار المعلمين العالية (كلية التربية حاليا) لمدة سنة. وقد نشر الدكتور نوري جعفر ما دار بينه وبين رئيس الوزراء من مشادة في جريدة لواء الاستقلال لسان حال حزب الاستقلال الذي كان يترأسه مهدي كبة. وكان ذلك الحزب من الاحزاب المعارضة للنظام آنذاك.. ولم ينشر تلك المقابلة في جريدة الامة لسان حال حزب الامة الذي كان ينتمي اليه الدكتور نوري جعفر ولم نعرف بواعث ذلك. وعمل الدكتور نوري جعفر بعد فصله في المدرسة الاهلية في بغداد ، ومثل هذه المدارس الاهلية كانت منتشرة في عموم العراق حتى انقلاب ١٧ تموز ١٩٦٨ حيث الغيت جميع المدارس الاهلية والجمعيات التي تشرف عليها وضمت تلك المدارس الى وزارة التربية. ان الدكتور نجاح هادي كبة في كتابه (الدكتور نوري جعفر) لم يكن دقيقا عندما ذكر ان عمل الدكتور نوري جعفر في المدرسة الجعفرية الاهلية كان عقب فصله بعد انقلاب ٨ شباط ١٩٦٣ وبوساطة عبد المهدي المنتفكي. لأن الاخير كان من اقطاب حزب الامة الذي يتزعمه صالح جبر وربما كان الشخص الثاني في سلم قيادة ذلك الحزب وكان نوري جعفر متقاطعا فكريا مع هذه الجهة في هذه الفترة وكما اشرنا اليه سابقا. كما ان الدكتور نجاح هادي كبة غير دقيق عندما وصف صالح جبر متصرفا لكربلاء عام ١٩٥٣ كما ان هناك اضطراباً في تاريخ بعض الكتب التي اصدرها الدكتور نوري جعفر.

بعد ثورة ١٤ تموز انفرط العقد الذي ضم هذين الرجلين، فاصطف عامر حسك الامارة مع القوى القومية وعين مديرا عاما لشرطة محافظة البصرة. وفي العهد العارفي عمل محافظا لكل من مدينة السليمانية والناصرية واحيل إلى التقاعد بعد انقلاب ١٧ تموز وقضى سنيه الاخيرة في قرية الترابة التابعة لقضاء المدينة الحالي وتوفي في منتصف الثمانينيات، وللحق والانصاف ومع اختلاف صاحب هذه السطور مع الرجل في توجهاته السياسية فقد كان الرجل موصوفا بالنبل والنزاهة. اما الدكتور نوري جعفر فقد قضى مغدورا به في حادثة قتل لئيمة ومجرمة في ليبيا كما هو معروف. وكما اسلفنا فقد مال الدكتور نوري جعفر بعد ثورة ١٤ تموز الى الماركسية والى المعطيات المادية يوضحها ويفسرها ويدافع عنها ويسفه مناوئيها، وجعل (بافلوف) عالم النفس والبيولوجيا مركز دراساته وكتبه، واذا ابتعد عن بافلوف قليلا، فغايته كانت الاثبات بمزيد من الحجج والبراهين التي تدعم وترسخ ما اكتشفه ذلك العالم الكبير. وبسبب الاحباطات التي سببتها السياسة للدكتور نوري جعفر فقد عزف الدكتور عن استعمال المصطلحات المثيرة او القريبة من عالم السياسة وافرغ كل جهده الفكري للدفاع عن المفاهيم الفكرية المادية ومفتاح مشروعه كان (بافلوف) وكشوفاته.

ولا ننسى ان الدكتور نوري جعفر قد تعرض الى عنت واضطهاد القوى التي تكره هذا التوجه ومن اولئك من كان صديق الامس وعندما وقع انقلاب ٨ شباط الاسود كان الدكتور نوري جعفر واحدا من ضحاياه فأودع السجن مع الكثير من الجامعيين المثقفين البارزين امثال العالم الجليل الدكتور عبد الجبار عبدالله والدكتور مهدي المخزومي والدكتور علي جواد الطاهر والعلامة طه باقر وعالم الاجتماع عبد الجليل الطاهر وبالمحصلة، فقد تم فصل ما يقارب المئة والخمسين من اولئك الجامعيين من وظائفهم. ومن الغريب ان جل هؤلاء المثقفين اليساريين احتضنتهم المملكة العربية السعودية زمن الملك الراحل فيصل بينما لم تحفل بهم الحكومات العربية التي كانت توصف آنذاك (بالتقدمية) اما الدكتور نوري جعفر فقد طاب له المقام في ليبيا.

وفي السبعينيات من القرن الماضي وبعد قرار اعادة المفصولين الى وظائفهم وصدور قانون عودة اصحاب الكفاءات عاد الدكتور نوري جعفر مع الكثير من اقرانه الى العراق ثم اغترب في ليبيا بعد اعلان الحصار وكانت نهايته المحزنة.